

كل الرسل

في الكتاب المقدس

بقلم

هربرت لوكير

دار الثقافة

توما
الرسول المفتري عليه

الفكرة الكامنة خلف المثل القائل «اعط كلباً اسماً سيئاً، وبذلك تكون مهمته قد انتهت قبل أن تبدأ» تنطبق بالتأكيد على توما، الذي لم يذكر عنه الشُراح والوعاظ كلمة مديح واحدة. فنادراً ما تعرض إنسان للتشهير والافتراء على أسس غير كافية مثل هذا الإنسان. لاشك أن توما يتطلب عطفنا بسبب سوء المعاملة التي لقيها. في أغلب الأحيان، تكون الانتقادات المعادية للرسول هي مجرد أصداء لانتقادات أخرى تتبع طريقاً مطروقاً، لمجرد أنه مطروق. مع وجود بعض المفسرين الذين يدارون عدم وجود رأي مستقل لديهم بتوجيه التوبيخ إثر التوبيخ لتوما. هاك بعض الانتقادات القليلة التي جمعناها. وجميعها تقرر نفس الفكرة بأساليب مختلفة، وبترديدها، فإنهم يعملون على دوام سلسلة من سوء الفهم، بالتعبير بألفاظ مختلفة عن عدة اعتراضات على توما. والاعتراضات التالية والمقتبسة من مصادر عليا لا تعطي للرجل حقه الواجب من الانصاف.

«يوجه الكثير من اللوم لتوما لعدم إيمانه، وهو بذلك يتناقض مع بقية الرسل في العلية» مرة أخرى «كان توما رجلاً قد أحسن اختياره، ولكن معنوياته كانت منخفضة» ثم «لو أن المطلوب كان عزف نغمة كئيبة مقبضة، فإن توما أصلح من يعزف تلك النغمة».

ثم «رجل ذو قلب دافيء ولكنه ذو مزاج سوداوي»

ثم «رجل ذو محبة كثيرة وإيمان قليل»

ثم «رجل يتميز بالصراحة والعزيمة ولكنه ميال لإخضاع غير المنظور إلى المنظور»

هاك وصف الكسندر وايت للرسول توما «إن شخصية



توما تجسيد للكآبة، فعندما يذكر الرجل نتذكر الاكتئاب»، وعندما نقول توما الذي يقال له التوأم نتذكر الاكتئاب الديني. كان بطرس ذا مزاج متقد وحماسي حتى أنه كان يتكلم دائماً، بينما كان توما مكتئباً لدرجة أنه لم يكن يتكلم كثيراً وعندما كان يتكلم فقد كان ذلك دائماً من أعماق قلبه المصاب بوسواس الشك المرضي».

بصراحة، نحن ننأى بأنفسنا عن تقييم مزاج توما، تماماً كما نفعل بالنسبة للآخرين الذين يعتبر هو من بينهم بأعتباره الشخص المتسم بالشك وسط الرسل – رجل فقد إيمانه وهو يرتعب خوفاً. وقد وجد أنه من الصعوبة أن يستعيد إيمانه، شخص كان عليه أن يستعيد امتيازه الذي تركه عن طريق إعلان خاص من قبل الرب. لقد حان الوقت لإخضاع شخصية فذة كتوما لدراسة مستقلة، دون تحيز أو وضع غمامة على العين، مع رغبة في رؤيته على حقيقته.

لاشك أن توما كان لديه شكوك - وهذا يحدث عند أقدس البشر!.

أني لا اعتقد ولا للحظة واحدة أن توما كان من بين الذين «ولدوا حزانى» وأن قلبه كان «موطناً للحزن»، وكان «ينظر للحياة بمنظار أسود» وكان يحمل بين جنبيه قلباً مثقلاً. أو لا أعتقد أن «السيد خائف» الذي يصوره جون بنيان في «سياحة المسيحي» صورة حية لتوما.

ربما لا نجد شخصية أخرى بين الرسل أكثر وضوحاً منه، لأنه على الرغم من أن شخصية توما تبدو معقدة في جوانب معينة، إلا أنها «منطقية في أفعالها لدرجة أنه من الممكن أن نفهم مزاجه الخاص بدرجة من الدقة».

١- مغزى اسمه

اسمه العبري توما مع مرادفه اليوناني Didymus يعني «التوأم». من الواضح، أنه كان من عادة اليهود حين يسافرون إلى بلاد أجنبية، أو يختلطون باليونان والرومان، أن يخلعوا على أنفسهم اسماً يونانياً أو لا تينياً، سواء كان من ذوي القربي، أو له علاقة بمسقط رأسهم. وهكذا فقد دعي ربنا المسيح، نظرا للقبه العبري Mashiach، أو الممسوح. ودعيت طابيثا «غزالة» وكلا الاسمين يعنيان «ماعز».

«توما الذي يقال له التوأم»، توما، طبقاً للأهمية السورية لاسمه، كان يلقب بالتوأم - وكلا الاسمين يعنيان «التوأم» والاسم معبر عنه في لغات مختلفة.

والطبعة السورية تكتب العبارة هكذا «توما الذي يدعي تاما» لقد استخدم العديد من المفسرين خيالهم محاولين ايجاد أخ توأم لتوما في العديد من شخصيات العهد الجديد. وحيث أن اسمه يقترن بمتي، فهناك من يقترح أنهما ربما يكونان أخين توأمين، ويذهب آخرون إلى حد افتراض أن توما كان أخاً توأماً للرب نفسه.

نحن نريد أن نعرف كثيراً من كان الأخ التوأم لتوما، وسواء كان هو أو هي أيضاً تابعاً أو تابعة ليسوع المسيح. فهناك اقتراح معقول يأتي إلينا من تقليد قديم يقول إن التوأم الآخر كان أختاً تدعى ليزيا Lysia. وهناك استنتاجات أخرى تحمل سمة الابتكار. فعلى سبيل المثال، يؤكد ترنش أن «المصادفة بين الاسم وفكر توما المتقلقل شيء لافت للنظر (يع ١:٨، ٤:٨). فالإيمان وعدم الإيمان كانا يتزاحمان للسيطرة على عقله، كما كان عيسو ويعقوب يفعلان في رحم رفقة».

وهناك نوع من الوعي المزدوج في كل واحد فينا. «لست أفعل الصالح الذي أريده بل الشر الذي لست أريده فإياه أفعل». عندما يصمت الوحي، يجب أن نحتفظ بنفس الصمت، ولا نطلق لخيالنا العنان، نحن نأخذ اسم توما على علاته، أي، أنه توأم، وحمل هذا الاسم إلى دائرة الاثنى عشر دون أي بيان عن شخصيته أو مفتاح للطبيعة المزدوجة التي كان متسماً بها. يقول يوسابيوس واحد من أقدم المؤرخين للكنيسة إن اسم توما الحقيقي هو يهوذا، وأن لقبه «التوأم»، وقد استخدم من قبل زملائه لتمييزه عن التلميذين الآخرين الملقبين بهذا الاسم - يهوذا أخو يعقوب، ويهوذا الاسخريوطي.

٢- سجل دعوته ليكون رسولاً

هناك ثماني فقرات في العهد الجديد يذكر فيها اسم توما، أربع منها ضمن قوائم الرسل. ومع أن الشواهد قد تكون قليلة إلى حد ما إلا أنها مميزة عادة، ويمكن أن نحصل منها على تصور واضح لأسلوب وشخصية الرجل (مت ١٠:٣، مر ١٨:٣، لو ١٥:٦، يو ١٦:١١، ٢٠:٢٤، ٢٦، ٢:٢١، أع ١٣:١). ووفقاً لقصة الأناجيل، فنحن لا نعرف شيئاً على الإطلاق عن أقرباء توما، ومكان إقامته أو حرفته. والأناجيل الثلاثة الأوائل لا تعطينا شيئاً سوى اسمه المجرد، وكما رأينا مع فيلبس، فنحن مدينون ليوحنا

بالميزات القليلة والشيقة في نفس الوقت، والتي تبرز توما كإنسان من لحم ودم، وتجعله يبرز أمامنا كإنسان حقيقي، ذي صفات مميزة وواضحة يمكن أن نتعلم منها الكثير.

من المؤكد أن توما كان يهودياً، ومن المرجح أنه كان جليلياً (أع ١:١١) ونستنتج من الأساطير أنه ولد من والدين فقيرين، علماه مهنة صيد السمك، ومنحاه قدراً من التعليم المفيد، ودرباه على الإلمام بالكتب المقدسة، حيث تعلم بحكمة كيف يمكن لها أن تتحكم في حياته وتصرفاته. وكما سوف نرى لاحقاً، فإن كتابات الأبوكريفا غنية بالإشارات لخدمة توما الأخيرة وموته. إن العهد الجديد صامت فيما يتعلق بالوقت الذي دُعي فيه توما ليكون تلميذاً والكيفية التي حدث بها ذلك. وكان أول ذكر لاسمه عندما اختار ربنا الاثنى عشر وأرسلهم اثنين اثنين. إن يوحنا هو الذي ينقذ توما من النسيان في إنجيله، ويجعله حقيقة راهنة، محيطاً إياه شخصياً باهتمام كبير في الحقائق الثلاث التي يسجلها عنه. ومع ذلك فالقليل الذي يذكره يخبرنا به عن توما كاف لمساعدتنا في فهمه، ولجعلنا نشعر أننا نعرف عنه أكثر مما نعرف عن بعض الرسل الآخرين الذين لدينا عنهم معلومات أكثر.

يشترك توما مع سمعان الغيور ويهوذا الاسخريوطي في الظهور في السجل المقدس دون إشارة لظروف دعوتهم لاتباع المسيح. ففي وقت ما، لابد أن توما استمع، مع الجماهير التي كانت تزحمه، إلى صوته وتعليمه، وقد حركه الروح القدس، فسلم حياته للمخلص، تاركاً كل شيء ليتبعه. ثم أنه لابد أنه رأى شيئاً في توما يدفعه لاختياره كرسول. يقول لنا إلدركمنج Elder Cumming ما يأتي:

إن غياب كل التفاصيل المتعلقة بتجديده ودعوته لايدل على شيء معين. إن ذلك يخدم هدفاً مزدوجاً، أنه يظهر مدى اختلاف الطريقة التي يحصل بها الخطاة على الخلاص. فالبعض منهم يقدم شهادة تحرك الآخرين كصوت البوق، والبعض الآخر لا يقدم شيئاً يذكر. هناك فرق شاسع في الشخصيات بين أبناء الله، ويظهر هذا الاختلاف في ميلادهم الجديد، كما يظهر فيما بعد ذلك. نعم، هناك كثيرون لا يستطيعون أن يقدموا رواية محددة عن تجديدهم. إنهم يعرفون أنه قد حدث، ولكنهم لا يعرفون متى أو كيف. وكل تلك الحالات يلفها الصمت الذي يحجب التغيير الكبير في حالة رسول مثل توما!.

تغيرت الحياة بالنسبة لتوما منذ الساعة التي التقى فيها بالمسيح. ومضى قدماً كرسول للمعلم، وبشير للعلي. وقد حصل على السلطان على كل الأرض، فرحاً لأنه حتى الشياطين كانت تخضع له، ولكنه كان أكثر فرحاً أنه بنعمته، قد كتب اسمه في السماء - جنباً إلى جنب مع أولئك السبعين الذين اختارهم المسيح بالمثل (لو ١٠:١٧-٢٤).

يدعم نظرتنا الأولى لشخصية توما قانون تداعي الخواطر. ففي قوائم الرسل تظهر الأسماء في ثنائيات - وهو ترتيب بإلهام الروح القدس، يظهر كيف أن الطيور على أشكالها تقع، فكل شخص ينجذب إلى توأمه الروحي. وهكذا نجد اسمي توما ومتى سوياً، ليس لأنهما، كما يقترح بعض المفسرين، قد يكونان أخوين، بل لأن هناك أشياء مشتركة تجمع بينهما، وبالتالي فقد انجذب كل منهما إلى الآخر. وبمقارنة القوائم المقدمة من الرسل يلاحظ أنه بينما يجعل لوقا ومرقس، الترتيب هكذا ومتى وتوما، إلا أن متى يضع في قائمته بتواضع جم، (توما) قبل نفسه.

إن متى وتوما، إذن، يوجدان جنباً إلى جنب، يجمع فيما بينهما اختبار مشترك وتعاطف شخصي يحقق فائدة لكلا الطرفين. كان هذان الاثنان لا ينفصلان، يتعلق الواحد

بالآخر كظله. ويدعم تلك الفكرة أن الرب الذي أرسل تلاميذه اثنين اثنين، تأكد أنهما لم يكونا من ذوي النير المتخالف. فيتساءل ألان بول Allan Poole قائلاً: هل كان متى المصدر الذي استخدمه المسيح مثل الابن الضال؟ لاشك أنه كان مثلاً على معجزة الرحمة التي أجراها المسيح في دائرة الرسل. وإزاء حقيقة أن ذلك اليهودي المرتد الخارج على الجماعة قد اختير ليكون رسولاً نرى السر في انجذاب توما نحوه واحتكاكه به. لأن توما يرى أن اختياره ليصبح «إناء للكرامة نافعاً لخدمة السيد» معجزة دائمة. من المرجح أن تلك الفكرة الأولى التي كانت تشغل عقل توما وهي تعمل على تفسير الشيء الكثير من موقفه تجاه الرب.

٣- إخلاصه الذي جعله لا يهاب شيئاً (يو ١١:١٦)

نتجه إلى إنجيل يوحنا بحثاً عن الفقرات الثلاث التي يقدمها لنا عن توما الرسول - الذي يرى أولاً في حديثه مع يسوع عندما عبر يسوع عن نيته في الذهاب إلى اليهودية ومرة أخرى، ثم في العشاء الأخير عندما اعترف توما بجهله للمكان الذي كان يسوع ذاهباً إليه. ثم عقب القيامة، عندما صرح بعد أن رأى الرب بذلك الاعتراف المذهل «ربي وإلهي»! نحن نأخذ هذه الأحداث الثلاثة منفصلة، ونرجو أن نكتشف أن توما يمثل حقاً جميع الذين آمنوا بالرب ليخلصوا.

لم يكن قد مضى وقت طويل بعد أن أصبح توما رسولاً عندما أعلن عن رغبة قلبية في التعرض فوراً للمصير المحزن الذي قد يلاقي جميع الاثنى عشر، ألا وهو الشركة في موت السيد. فبعد أن علم يسوع بموت لعازر قرر أن يذهب إلى بيت عنيا ليقيم صديقه الذي أحبه، ولكن بقية الرسل حاولوا أن يثنوه عن عزمه بالذهاب إلى اليهودية بسبب القادة الدينيين هناك والذين كانوا يتآمرون على قتله. ولكن توما صرح بالقول إنهم لا يصح أن يعوقوا المعلم عن عمل ما كان يرغبه، على الرغم أن ذلك قد يكلفهم حياتهم. «لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه!» يوحي هذا القرار الشجاع أنه بدلاً من إقامة لعازر من الأموات، فإنهم هم أنفسهم قد يذهبون مع يسوع لملاقاة حتفهم.

ألا تشع كلمات توما بحب عميق وحقيقي للمعلم؟ نحن ننأى بأنفسنا عن أولئك الذين يستنتجون من هذا القول إن توما قد استسلم للتشاؤم عندما شعر أنه لا فائدة سوف تجنى من تلك الرحلة المتسرعة التي كان يسوع مزمعاً القيام بها سوى الموت لهم جميعاً. يدعو أحد الكُتَّاب توما بـ «المتشائم البطولي» ويتبع عدد آخر من المفسرين نفس هذه الفكرة الخاطئة عن توما. وعلى الرغم أنه لم يكن يعلم دلالة كل ما قال، إلا أن قوله كان صادراً من قلب مخلص ومحب وكان يحمل هذا المعنى، لن نتركه، وسوف نذهب أيضاً معه، وإذا لزم الأمر، سوف نموت معه. كم كان ذلك القول مختلفاً عن قول بطرس المليء بالزهو حين قال: «يارب إني مستعد أن أمضي معك حتى إلى السجن وإلى الموت». ولكن لم تكن تلك سوى مجرد كلمات، لم يعقبها عمل. أما بالنسبة لتوما فقد كان إعلاناً مؤيداً بالفعل لأنه عبر الأردن مع يسوع، وذهب إلى اليهودية، حيث لم يتوقع سوى الموت له ولبقية التلاميذ.

جميل دائماً أن نتشبه بيسوع، حتى لو تعرضت حياتنا للخطر (أع ١٥:٢٦، رو ١٢:١١). كان توما يفكر في الموت، ولم يكن يسوع يفكر سوى في مجد الله (يو ١١:٤).

لم يكن توما يرى سوى الجانب المظلم، الموت الأكيد - كما أنه فيما بعد لم يكن يرى احتمال القيامة (يو ٢٠:٢٥). وعلى الرغم أننا قد نتبين نوعاً من الإيمان بالقضاء والقدر في قراره باتباع يسوع، حتى على حساب حياته. إلا أن توما ربما يكون قد اقشعر من فكرة الموت، ولكنه لم يكن يفكر في الهروب. كان موقفه عند هذا المنعطف في خدمة

المسيح علامة على تعلقه به وإخلاصه له. ويبرزه كإنسان يتحلى بحب عميق وقوي تجاه المخلص كأي تلميذ آخر. كانت محبته لا تحتسب شيئاً ثميناً لديه. وكأشجع الشجعان، كان على استعداد ليضع رأسه بين فكي الموت في صحبة ربه. إن المحبة قد جعلته يستعذب الموت في مثل هذه الصحبة المباركة. فالمحبة الكاملة طرحت الخوف إلى خارج في ذلك الوقت.

كان من بين أتباع المعلم دائماً أولئك الذين كانوا يرون، كما بالإلهام، ما ينبغي أن يعمل. وقد كانوا مسرعين في رؤية إلى أين يقودهم الواجب، وما ينبغي للإخلاص أن يقودهم إليه، ويظل توما رائداً لهم جميعاً. لذلك، دعنا نتوقف عن الافتراء على توما، متهمين إياه بالخوف المرضي واليأس، والتشاؤم. لقد كان ذا روح وثابة، مع شخصية نبيلة جديرة بالاحترام لم ينصفها بعض اللاهوتيين. كانت السمة الرئيسية في توما أنه كان يتميز بمحبة عميقة ومخلصة وعلى استعداد دائم لترك كل شيء لأجل المسيح، والتضحية بكل شيء لأجل المسيح، والموت مع المسيح.

وكهؤلاء الفرسان الشجعان الملازمين للملك بوهيميا الأعمى، الذين امتطوا خيولهم في معركة «كريسي» وكانوا قد جدلوا لجمهم مع لجام حصان سيدهم، مقررين بذلك أن يشاركوه مصيره مهما يكن - وهكذا توما، فقد قرر ألا يترك ربه سواء في الحياة أو الممات، حيث أنه كان مرتبطاً برباط الحب العميق الحماسي. ليت قلوبنا تكون مخلصة ومكرسة له مثل توما، وليت تلك المحبة الفياضة والبطولية تكون من نصيبنا! «لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه». لقد علم يسوع تلاميذه أنه ما لم يكونوا على استعداد أن يكرهوا حياتهم من أجله، لن يقدروا أن يكونوا تلاميذه. إن توما يستحق كل مديح لأنه كره حياته أيضاً! كانت مطالب المسيح تسبر أغوار النفس، ولكن توما المكرس كان على استعداد للتضحية بكل شيء، فبدلاً من اتهامه بأنه «تجسيد حي للاكتئاب» دعنا نحاول محاكاة روحه الوثابة البطولية ونبدأ في أن نحيا الحياة الحقيقية.

٤- بحثه العقلي عن المعرفة (يو ١٤:١-٦)

الإشارة التالية لتوما تأتي بنا إلى العلية حيث كان الرب مجتمعاً مع خاصته حوله. كانت مناسبة محزنة لأن فكرة وداع يسوع والافتراق عنه كانت تثقل قلوبهم مثل الكابوس، وقد أخرس شبح الانفصال ألسنتهم. ولكنه تحدث إلى قلوبهم المضطربة عن أفراح السماء وعن المكان الذي سوف يعده لهم، حتى يتبعوه. إنه لن يتركهم يتامى ولكنه سوف يأتي إليهم ثانية. لقد عرفوا المكان الذي كان ذاهباً إليه، والطريق للوصول إليه. ثم تحدث توما وقال إنهم لا يعرفون أين سيذهب، فما بالك بالطريق إلى ذلك المكان.

وعلى الرغم أن الرب تحدث بابتهاج عن عودته إلى بيت أبيه، إلا أن توما لم ير أن هناك شيئاً مبهجاً فيما يتعلق بالفراق اليائس الذي ينتظرهم. ولذا كان رده شأنه شأن كل كلماته المدونة عنه، يحمل لمسة من الحزن. «ياسيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق؟» (يو ١٤:٥). وعندما صلب يسوع أخيراً، لابد أن توما شعر بأن قوى الظلام قد نجحت في انتزاع المحبوب من وسط الذين أحبوه. وفي كل مرة يذكر فيها فإنه «يعزف هذه النغمة الحزينة» ويظل في حالة معنوية منخفضة. كل ما قاله يسوع عن المنازل في المجد لم تخلب لبه. وكان كل ما يعرفه أن ربه العزيز سوف يتركه، وأنه كان يريد دائماً وأبدا أن يكون معه. ربما كان توما بطيء الفهم، وحذراً بأكثر ما ينبغي في قبول الحق، لذلك كان من الصعب عليه أن يؤمن. ولكن كانت هناك نار خامدة، تحت السطح بداخل هذا الرسول المتردد الهادئ، لا يمكن لأحد أن ينبيء بوقت اشتعالها، لقد ابتدأ بعض الرسل بداية حسنة، ولكنهم خيبوا ظن المسيح فيهم. ولكن توما كان يمضي بثبات،

مظهراً القليل من الصفات الجيدة أولاً، ولكنه أدهش الذين حوله بغيرته وإيمانه عندما تعمقوا في معرفته.

عندما يبدو أن توما يعترض على ما قاله يسوع، لا يصح أن ندينه بعدم الإيمان أو بالفشل التام في فهم تعليم ربه. إنه من بين أولئك الذين تفوتهم المعلومات لأنهم يفترضون أن لديهم معرفة ليست بحوزتهم. وقد قيل إنه «لو كان هناك فن في إخفاء ما لا يعرفه المرء، فإن هناك حكمة في إظهار قصوره». فالمعرفة في أحسن حالاتها نسبية – ويمكن الوصول إلى حدودها بسرعة. نحن لا نستوعب بسرعة حقيقية أن هناك دائماً أملاً مشرقاً بالنسبة للعقل الذي يدرك قصوره ونقائصه، ولكن لا قيمة للعقل القانع بما فيه من ظلام.

إن سؤال توما: «كيف نقدر أن نعرف الطريق؟» تظهره كباحث عن الحقيقة الأكمل، وقد كان يشبه جوته Goethe الذي في اشتياقه للمزيد من المعرفة، صاح قائلاً: «النور – النور – المزيد من النور، أعطنا المزيد من النور وإلا فاننا سوف نموت!» إن المزاج الطبيعي، الحذر للرسول لم يجعله يغلق عقله أمام المزيد من المعرفة. ربما أدى قلقه إلى ارتباك تفكيره بشكل مؤقت، لعدم فهم ما قاله يسوع، ويبدو مما قاله يسوع لتوما أن توما كان يعرف أكثر مما كان يعتقد أنه يعرفه، لأنه لابد أنه كان قد استجمع من الأشياء الكثيرة التي قالها يسوع أن يسوع سوف يموت، وبعد موته، سوف يعود لأبيه: لذلك ربما حاول توما أن يجعل نفسه يعتقد أنه أساء فهم تعليم المعلم، وابتدأ يعتقد أخيراً أنه كان يجهل الموضوع الذي لم تكن لديه رغبة في أن يكون واضحاً، بسبب الرحيل القادم للسيد عنه.

وفي رد يسوع على عبارة وسؤال توما تتضح حقيقة هامة، حيث ذكر يسوع واحداً من أسمى الإعلانات عن نفسه في الكتاب المقدس. «كيف نقدر أن نعرف الطريق؟». واحد فقط يمكن أن يقدم الجواب – الطريق ، نفسه، الذي هو مجمل كل ما نحتاج لمعرفته، والايمان به، ومحبته، واتباعه. إنه كل ما نحتاج إليه في هذا الزمن وفي الأبدية. ونحن لا يمكن أبداً أن نستحوذ على شيء أعظم منه، كما لا يمكننا أن نكتفي بما هو أقل منه. ولذا فان بحث توما عن معرفة أعمق قد وجد إشباعاً، ولابد أنه شعر بالإثارة حين علم أن ربه هو:

الطريق إلى الله – الطريق الذي بدونه لا يوجد أي ذهاب.

حقيقة الله – الحقيقة التي بدونها لا توجد أي معرفة.

الحياة من الله – الحياة التي بدونها لا توجد أي حياة.

٥– طلب الحقائق عن ربه (يو ٢٠:٢٤–٢٩)

على الرغم أن توما، الذي يدعي التوأم، كان واحداً من الذين أظهر الرب المقام لهم نفسه (يو ٢١:٢)، وهو من ضمن المذكورين في قائمة الرسل الحاضرين في اجتماع الصلاة السابق ليوم الخمسين (أع ١:١٣)، إلا أن تلك الحادثة العرضية المثيرة لاجتماع التلاميذ الخائفين معاً وظهور يسوع المفاجيء في وسطهم بعد قيامته، كانت المناسبة الأخيرة التي نرى فيها توما يتحدث عن المخلص، ثم إليه. ففي نفس اليوم الذي قام فيه، شق طريقه نحو البيت الذي كان فيه تلاميذه الحزانى وقدم لهم الدليل الكافي والتأكيد بأنه قد قام حقاً من الأموات وأنه حي إلى الأبد.

في هذا الاجتماع الأول مع التلاميذ، كان توما غائباً (يو ٢٠:٢٤). وقد أقنعه حديثه التالي معهم وترديدهم الشيق لما رأوه وسمعوه من المعلم المقام، حتى وإن لم يكن مقتنعاً تماماً بحقيقة القيامة، بأن يكون وسط التلاميذ بعد ثمانية أيام (٢٠:٢٦)، وحيث أننا نشعر أن عدداً كبيراً من الوعاظ والمعلمين قد أساءوا فهم غيابه عن الباقين عند أول

ظهور للسيد، ثم رفضه لقبول شهادتهم فيما يتعلق برؤية يسوع لذلك دعنا نحاول أن نعفي توما من الكثير من اللوم الملقى عليه عن طريق الخطأ. أولاً، خذ موضوع غيابه عن بقية التلاميذ بعد تجربة الجلجثة. هناك تفسير شائع يقول إنه سقط في مستنقع اليأس الديني، ولذلك رفض بعناد، أن يبقى مع التلاميذ الآخرين. وكنتيجة لذلك، قد فاته الظهور الأول للمسيح ونستنتج من ذلك أنه إذا تغيبنا عن اجتماع صلاة دون مبرر مقبول، نكون عرضة لأن نفقد البركة. لاشك، أن توما فقد الكثير بسبب الغياب في ذلك اليوم المشهود، يوم الرب الأول (يو ٢٠:٢٤).

ولكن ليكن معلوماً، أننا لا نعرف السبب في عدم تواجد توما. كما أننا لا نستطيع أن نخمن السبب في غيابه لوحده. ولأنه شعر مثل بقية التلاميذ، أن القبر المختوم كان مقبرة لكل الآمال. فربما التجأ توما لبقعة هادئة ليذرف الدمع لوحده ويبقى وحيداً في حزن مقبض. وكبطرس قبله، ربما أراد أن يهرب ليبقى وحيدا مع حزنه. ولربما دفعه خوفه القديم من اليهود بأن يبتعد (يو ١١:٨،١٦). ومن المرجح أنه لم يستعد صحبته مع التلاميذ الآخرين، بعد تشتتهم الأخير في البستان، عندما دفعت المخاوف كل واحد ليبحث عن بر الأمان. أليس من الخطأ أن نؤكد سبب غياب توما، حتى وإن كان الكتاب المقدس لا يقدم لنا سبباً لمقعده الخالي في المنزل الذي كان الآخرون مجتمعين فيه؟

ثم أننا متهمون بارتكاب خطأ آخر - ألا وهو سوء تفسير موقفه تجاه زملائه من الرسل عندما جاءوا إليه بخبر القيامة المجيدة. لقد رفض توما أن يقبل دليلهم، وقابل شهادتهم المثيرة بإعلانه أنه لن يؤمن مالم ير بنفسه آثار المسامير في يدي وقدمي يسوع. ألم يخطئوا مرة قبل ذلك، فيما يتعلق بظهور يسوع عندما مشى نحوهم على البحر؟ والآن فقد يكونون مخطئين مرة أخرى، فربما رأوا خيالاً بدلاً من رؤية جسده (مت ١٤:٢٥). كل ما طلبه توما أن يحصل على نفس الدليل الذي حصلوا هم عليه، حيث يستطيع أن يرى ويلمس شخص ربه بنفسه، وعندئذ لن يكون هناك حدود لإيمانه.

لاشك أن مثل هذه السمة الخاصة بتوما يجب أن تمتدح لا أن تدان! فالخبر الذي سمعه كان خبراً جيداً لدرجة أنه قد لا يكون حقيقياً، ولكنه لم يرفض ما سمعه. لقد كان يرغب فقط في أن يختبر الحقيقة كلها عن طريق الأدلة. ان إخلاصه هو الذي دفعه لأن يفترق عن بقية الرسل حتى يصل إلى اقتناع شخصي بخصوص القيامة.

ونفس هذا الإخلاص هو الذي اجتذب منه أعظم شهادة ذكرت عن المسيح. ولكن تأمل في الظلم الذي نتهمه به بإعطائه هذا اللقب «توما الشكاك». وعدم تذكر أي شيء عنه سوى شكه المزعوم، وتسمية أي شخص لا يقبل حقيقة مؤكدة بلقب «توما الشكاك». ومع ذلك فالسمة الرئيسية له ليس الشك بل الحب العميق المتفاني للمعلم.

قال توما «إن لم أبصر... لا أؤمن» (يو ٢٠:٢٥). وقبل أن ننتقده بقسوة كشخص عريق في الشك ومتهم بارتكاب خطية عدم الإيمان الكبرى، دعنا نتذكر أن الرسل الآخرين لم يؤمنوا بالقيامة حتى رأوا الرب المقام نفسه. لذا لا يمكننا أن نفصل توما عن الباقين ونجعله الرمز الوحيد للشك وعدم الإيمان. جميع التلاميذ كانوا «الأغبياء» الذين تحدث يسوع عنهم، الذين كانوا بطيئي الفهم في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء، وما تكلم به هو نفسه فيما يتعلق بموته وقيامته وتمجيده (لو ٢٤:٢٥،٢٦).

ما لا يجب أن ننساه أن توما كان رجلاً كسير الفؤاد، وأن التحفظ الذي أبداه تجاه خبر قيامة المسيح ليس مصدره العقل بل القلب - ليس نتيجة لصعوبة عقلية، بل لحزن عظيم. في ظل ألم عظيم، تصبح الروح خرساء. وقد

ظل توما هكذا طيلة أسبوع كامل، ولذا وجد شيئاً من الصعوبة في قبول الخبر السار. لم يكن توما «شكاكاً وقحاً» فالشك الذي أبداه كان شكاً شخصياً أراد به الوصول إلى اليقين، لم يكن توما يتوق لشيء أكثر من رؤية ربه الحبيب مرة أخرى، يذكرنا تنيسون أن:

«الشك المخلص يحمل إيماناً أكبر
من الإيمان بنصف عقيدة»

ما هي سمات الشك المخلص؟ أولاً، إنه ألم عظيم، وهو يلهث ويتوق للنور، ولكونه مخلصاً، فهو يقبل إلى النور. قال أوغسطينوس: «شك توما حتى لا نشك أبداً». ويقول روبرت إليس طومسون «إن قصة توما تثبت، لو كان الإثبات مطلوباً، أن الرسل لم يكونوا مجموعة من الأتباع الأغبياء، الذين كانوا على استعداد أن يؤمنوا بكل ما يقال لهم، لأنه كان هناك واحد منهم على الأقل يصر على الدليل والبرهان، تماماً كما يفعل تندل أو هكسلي».

وعلى الرغم أننا لا ندين ما عمله توما، إلا أننا نسارع إلى القول إنه ليس شيئاً مثالياً لأن الإيمان لا يجب أن يستند إلى برهان، بل إلى مغامرة قلبية وعقلية، نابعة من الإيمان الشخصي. يقول كولبروج «لا تخف من الشك إذا كنت ترغب في الإيمان». كل المتشككين المخلصين قد فعلوا ما فعله توما، حين انتهى به المطاف أخيراً أن يركع على ركبتيه أمام السيد في شكر وسجود. يالها من فرصة مجيدة أنه بعد ثمانية أيام من ظهور المسيح الأول، جاء ثانية ووقف وسط أتباعه، وفي تلك المرة كان توما حاضراً – لا ليحل مشكلة شكوكه العقلية، بل ليختبر الشفاء الناجح لقلبه الكسير بسبب افتقاده الواضح لربه.

قال المعلم «سلام لكم» ثلاث مرات ليبعد الخوف عن تلاميذه، وفي كل مرة كان للكلمة معنى مختلف:

كانت الأولى مرتبطة بعمله الكفاري، لأنه ذكر أنه بعد أن قال سلام لكم (يو ٢٠:١٩)، «أراهم يديه وجنبه». إن أساس السلام هو دم الصليب (كو ١:٢٠).

وكان نطقه الثاني بكلمة السلام مرتبطاً بوصية معطاة للتلاميذ لكي يمضوا قدماً باسم المسيح. كان عليهم أن يكونوا رسلاً للسلام، لذلك قال: «سلام لكم» (يو ٢٠:٢١، أع ١٠:٣٦، أف ٢:١٧).

والنطق الثالث لكلمة السلام سُمِع في يوم الرب الثاني، عندما كان توما حاضراً مع بقية التلاميذ. لاشك أن عدم إيمانه كان مصدراً للاضطراب، ولكن بالرغم من حذر توما الشديد، تكلم المسيح بكلمة السلام واشترك توما نفسه في البركة بهذا السلام الذي يفوق كل عقل (يو ٢٠:٢٦).

بعد أن وجه يسوع انتباهه إلى توما، دخل معه في أحد الحوارات الشهيرة والتي كانت غالباً عبارة عن أحاديث موجزة من طرف واحد تظهره كالمحاور البارع. بعد أن أعطى يسوع البركة لجماعة التلاميذ الذين شعروا بالإثارة، وقدم دعوته لتوما ليلمسه كدليل على أنه قد قام حقاً، فإنه أظهر بذلك أنه عليم بكل شيء. «وباستخدامه لنفس الألفاظ التي كان توما قد استخدمها، طلب من تلميذه المتحفظ أن يفحص آثار الجروح بحثاً عن الدليل الذي كان يطلبه. ثم وبخ توما برفق بسبب ضعف إيمانه «لا تكن غير مؤمن بل مؤمناً».

كان ينبغي أن يكون كل ما سمعه توما من شفتي سيده بخصوص موته وقيامته كافياً بدون الرؤية. ولا شك أنه كان يستحسن أن يشك في حواسه بدلاً من عدم الثقة بكلام سيده.

وبالإضافة إلى ذلك، أليس من المحزن أن يضطر يسوع للحديث عن رسول بنفس الألفاظ التي استخدمها في شجبه وإدانته للعالم؟ فالكلمة (غير مؤمن) المستخدمة هنا هي نفس الكلمة التي استخدمها الرب في توبيخه لعدم

الإيمان السائد في جيله (مت ١٧:١٧). ولكن جواب توما كان رائعاً كما كان فورياً «ربي وإلهي!» فهو الشخص الوحيد في العهد الجديد الذي خاطب ربنا كالله. إن إنجيل يوحنا، بالطبع، من زاوية خاصة هو إنجيل لإثبات لاهوت ربنا. إن المخلص الرحيم لم يستغل حالة عدم إيمان تلميذه، ولكنه حضه على دعم إيمانه بتقديم دليل من الحواس، فاقتنع بخطأه بسرعة، واعترف بأن معلمه المقام هو القادر على كل شيء. لابد أن توما شعر بقدر كبير من الإثارة حين رأى كيف أن ربه قد انتصر على الموت!

أخيراً، انتقل توما إلى الجانب المنير من حذره المتجهم، وبعد أن أقسم تقريباً أنه لن يقبل حقيقة القيامة، نراه واثقاً أنه يقف أمام الرب نفسه، مقدماً شهادة رائعة لابد أنها أشبعت قلب معلمه - «ربي وإلهي!» حقاً، إنها أعظم وأقوى، وأقصر شهادة في العهد الجديد لحقيقة يسوع في الماضي والحاضر، وهي شهادة رائعة لكونها صادرة من توما. لقد صعد سريعاً من وادي الهوان العميق وأرض اليأس القاتل إلى الجبال البهيجة ومرتفعات الرؤيا السماوية، لكي يعيش، فيما بعد، حياة قوية في الإيمان، معطياً المجد لله.

اختفى الشك من عقل الرسول. وحين أدرك يسوع رغبة توما المخلصة في الإيمان، زوده بالإعلان نظراً لحالته العقلية، مما مكنه من أن يقدم أقوى شهادة قدمها أي تلميذ للاهوت المسيح، مما وضع توما في مقدمة جميع المؤمنين في تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ العالم. صاحب هذا الاعتراف الرسولي العظيم ذلك التطويب المثير للمعلم حين قال: «لأنك رأيتني يا توما آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو ٢٠:٢٩). ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، فالإيمان الحي يجب أن يكون إيماناً شخصياً، مدعماً بقوة إعلان يقدمه الروح القدس للضمير والإدراك، ويكون مركزاً على المسيح دائماً. ألسنا من بين الذين لم يروا، ولكنهم آمنوا؟ لقد خلصنا بالإيمان بالنعمة ونثبت في الإيمان عندما نرى ما لا يرى.

نودع الآن توما الأكثر جاذبية، والذي، على الرغم أنه رجل متحفظ، وبطيء الفهم، وميال للنظر للأحداث بمنظار أسود، إلا أنه كان رجلاً لا يمكن أن يقنعه الآخرون ربما لم يره بنفسه. وما كان ينقصه فيما يتعلق بارتفاع روحه المعنوية، قد عوضه بشجاعته الفذة وعدم أنانيته المفرطة. يا للمغزي العميق في إعلانه «ان لم أبصر في يديه أثر المسامير... لا أؤمن». إن أي نظام ديني أو فلسفي يفشل في أن يحمل آثار المسامير هذه يجب أن يرفض. إن آثار الجلجثة هذه علامة أكيدة على المصداقية. ثم أننا كالذين أرسلهم الرب من الضروري أن نحمل سماته (غل ٦:١٧).

وعندما يرى الأشرار حولنا «آثار المسامير» في حياتنا، وسلوكنا، يكفون عن عدم الإيمان ويصبحون مؤمنين ويحصلون معنا على إيمان وفرح بهيجين.